الباب السادس

موقف القرآن من الوفاء

القرآن يحثّ على الوفاء:

إن الوفاء بالعهود ، من الإيمان، ومن لا عهد له لا إيمان له،وقد حثّنا الله في كتابه العزيز على الوفاء بالعهد حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة النحل: ٩١].

إذاً فمن الأشياء التي حث عليها الدين الحنيف، خُلُق الوفاء،ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الوفاء في مواطن كثيرة، ولعل أشرف مكانة للوفاء هي، أن يصف الله تبارك وتعالى ذاته القدسية بالوفاء حيث يقول جل قائلاً عليماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [سورة التوبة: ١١١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾، أنه لا أحد أوفى بعهده، ولا أصدق في انجاز وعده من الله جل جلاله، فهو القادر المتمكن من الوفاء، وهو أصدق الواعدين وأوفى المعاهدين.

الوفاء من الإيمان:

قال هو كما قال الله تعالى في كتابه فيه وفي أمثاله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة النساء: ١٢٠].

سأل المنصور الخليفة العباسي يوماً بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال المسؤول: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يفعل كذا وكذا.

فقال له المنصور: عليك لعنة الله، وتطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟.

فقال المسؤول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ فإني أشهد أنك لوفيّ حافظ للخير،ثم أمر له بمال فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين، إمضاء طاعته، ما لبست لأحد بعد هشام نعمة، فقال له المنصور: لله درك فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً.

عواقب الغدر وخيمة :

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد ، غدراً بعدما صالحه وكتب إليه أمانا وأشهد شهوداً، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر:

ما رأيك في الذي كان مني؟، قال له المستشار: أمر قد فات دركه، قال له عبد الملك: أقسمت عليك لتقولن، فقال له المستشار: لو قتلته يا أمير المؤمنين وأنت حي كان جميلاً.

فقال عبد الملك بن مروان: أو ما تراني حيًّا؟ فقال المستشار: ليس بحي من أقام نفسه مقاما لا يوثق به في عقد ولا عهد، والله لا يخرج عليك بعدها خارجي إلا وبلغ الغاية في معاداتك، وإن بذلت له كل أمان، فقال عبد الملك بن مروان: كلام لو سبق سماعه فعلي لم أصنع ما صنعت، ولقد صدق من قال: نصف عقلك مع صاحبك.

وكان العرب في الجاهلية يشهّرون بأهل الغدر والخيانة،ويهجون من عرف عنه خلف الوعد والمماطلة في الأمور، وقال: من بذل لك خلق مقاله ، ومر نواله فهو العدو بعينه، وقيل لأبي العيناء : كيف تركت فلاناً مع قومه؟.

تصرف الحاسد:

وكانت العرب تضرب المثل فيمن أحسن وأجاد، ثم كوفىء غدراً وخيانة: فقالوا: جُوزِيَ جزاء سنمار، وأصل المثل أن أحد الملوك لما خاف على ولده، وكان قبله لا يعيش له ولد.

سأل عن منزل صحيح، فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه إلى النعما ن عامله على أرض العرب، وأمره أن يبني له قصراً، فأمر النعمان رجلاً يسمى سنمار، فبناه كأحسن ما يكون البناء، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه وجماله.

فقال: لو علمت أنكم توفونني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس، حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى القصر فتقطع ، فقالت العرب: جزائي جزاء سنمار.

والغدر والخلف ليس من أخلاق الرجال ولا من صفات الكرام، لأن الغدر مكر والمكر كفر، ومن عامل الناس بالمكر كافوه بالغدر، والغادر معرض للهلاك والخزي الذي يطوقه والعار الذي يلاحقه، ورُبَّ حيلة أهلكت المحتال.

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ثلاث هنَّ راجعات إلى أهلها، المكر،والنكث، والبغي، ثم تلا قوله تبارك وتعالى:﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الفتح: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [سورة يونس: ٢٣]. وكانت العرب في الجاهلية، إذا غدر منهم غادر يوقدون له بالموسم ناراً وينادون عليه ويقولون: ألا إن فلاناً غَدَرَ.